الباب الأول

الرجل

"أقبلوا أيها الفيلق المبارك، يا شباب الأيام التي لم ينفرط عنها عقد الزمان بعد، أقبلوا كالفجر الطالع واملأوا آفاق الورى بالنور"

لتريه

أقبل السيد في تؤدة ورزانة، طويل القامة، معتدل السمت عظيم الهامة، حسن الطلعة واللحية، تعلوه سمرة، في وجهه أثر من السجود، لا يلتفت إذا مشى يمنة أو يسرة، يضوع المسك من أرداته على القرب وعلى البعد حتى ليشيع الأرج إذا خرج من داره، فتعرف أنه القادم إليك قبل أن تراه.

فإذا طالعك ودنا منك رأيت رجلا لباسا عليه بزة فاخرة تباهي بذوق صاحبها في قماشها وطرازها، كأن قماشا تخير لنفسه أ؛سن ما لديه، فاجتمع ذوق المشتري وذوق البائع على ذلك الوجه المشرق، تعلوه قلنسوة طويلة سوداء، رداؤه وقميصه بأربعمائة درهم، في زمن كانت فيه ثمانية أرطال سمن بدرهم، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم، والعسل عشرة أرطال بدرهم،ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم، ولحم البقر تسعون رطلا بدرهم، بل الكبش بدرهم..!

ومن جبة سنجاب إلى جبة ثعلب يصلي فيها، إلى جبة فنك (نوع من جراء الثعلب التركي) في زمن لم يك يلبس الفنك فيه إلا الأقيال والدهاقين والسروات، إذا ألفيت فيه أو فيما قبله رجلا يلبس رداء بألف فهو ابن عباس أو من على شاكلة ابن عباس: ابن عم النبي، ونائب أمير المؤمنين علي، والجد الأعلى لهارون الرشيد.

هذا السيد الذي ينم مظهره عن المقام الرفيع، ينبئك مخبره عن مقام في قمة الملأ الأعلى من المخلصين، مجلس هو الوقار بعينه، وفؤاد جسور هو الشجاعة في عنفوانها، وجنان ثابت لا يطيش لدى القارعة. إذا سمع اللغو أعرض عنه، هيوبا لا يتكلم إلا جوابا،حتى إذا دعت إلى الحديث دواعيها فترت شفتاه عن ثنيتين ناتئتين ثم انبثق النبع سلسلا من سلسل، كأن ملكا من الملائكة يوحي إليه! مضرب المثل في وفائه وناداه، وبسطه وإيناسه، وحدبه على أعدائه وأوليائه. لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله فما عند الله خير من البيع والتجارة. رزقه ربه رزقا حسنا فجعله كله زلفى لله وقربى، فثبت الله فؤاده واستخلصه لنفسه، فجعله للناس آية في الدنيا وفي الدين.

فمن ذلك هو كل ذلك..؟

إنه النعمان بن ثابت المكنى بأبي حنيفة. الذي يتبين عقله من منطقه ومشيته، حديث العراق كله والشام والحجاز ومصر. تتردد عباراته إلى جوار أساطين المسجد الجامع في الكوفة، فتتردد أصداؤها في المسجد الحرام بالمدينة،وفي المسجد الأقصى ببيت المقدس، وفي البيت الحرام بمكة، وف يجامع عمرو بالفسطاط. يعرف العامة عنه أنه رجل عظيم يصنع العظائم ولا يصطنعه الخلفاء ولا الأمراء، فإذا ذهب إلى المسجد انجفل الحضور إليه يلتمسون وقع الدر من فيه. يطالعهم كل آن بجلائل العلم الذي ينحين له الأفذاذ من العلماء. ولو أتيح للناس أن يروا ما أراه الله للأجيال من بعدهم لشهدوا رجلا – بعد رسول الله وبضعة من صحبه – هو أخلد الرجال في تاريخ الإسلام بما مكن للشريعة المسحة من أسباب التعميم والانتشار، فظلت كما أنزلها الله عصرية في كل عصر ومصر. وغدا الدستور الشرعي في أحدث الأمم الإسلامية حضارة يتحصل في كلمة يسيرة المبنى كبيرة المعنى هي: "أرجح الأقوال من مذهب أبي حنيفة"، الرجل الذي أعلن الحرية في كل مكان وفي كل زمان، في الماضي والحاضر والمستقبل، في التجارة وفي الملك، وفي التصرفات وفي حقوق النساء، وفي حقوق الرعية. حرية وتسامح في كل شئ يسموان باسمه في معارج الخلود. يقاوم صاحبهما طغيان الشرطي وطغيان الأمير وطغيان الخليفة وطغيان التقاليد وطغيان التعصب. ولا تنال منه الهزاهز ولا الفتن وينشئ مدرسة الرأي في الإسلام لتكون أم الفقه الإسلامي ومنبعه على مر الدهور.

* * *

كان فتى طوالا فيه سمرة منحدرة إليه من وسط آسيا من أصلاب أجداده في الأفغان – فلقد ولد في سنة ٨٠ للهجرة وكان أبوه وجده من موالي بني تيم. فهو باسمه سمى ملك من الملوك في العراق "النعمان بن المنذر" وهو بمولده مولى من الموالي، لم يتلق العلم في مدرسة ولا جامعة، وإنما دخل المسجد الجامع، وتخرج في مدرسة الدنيا.

وكانت الدنيا في ذلك الزمان والمكان أحفل ما تكون بالرجال والأعمال. كان بنو أمية في قمة المجد في حكم عبد الملك بن مروان وكان الكوفة كأتون مستعر، وكان أمير العراق في طفولة النعمان الحجاج بن يوسف الثقفي، رجلا ما يزال اسمه يجري في التاريخ العربي بما يجري به اسم نيرون في التاريخ الغربي. فالنعمان لم يسلخ في بواكير حياته ليلة واحدة ولا نهارا دون أن تصطك مسامعه بأحاديث هذا الطاغوت الناشبة براثنه في أعناق جيرته وعشيرته. يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم في العراق عامة والكوفة خاصة – وحمل الطاغية في عنقه دم العلماء فيما حمل من دماء الشهداء فلم يتردد أن يقتل شهيدا في سنة ٩٥ "مات... ما على ظهر الأرض

رجل إلا ويحتاج إلى علمه" هو سعيد بن جبير. ومن بعد ذلك بعام في سنة ٩٦ مات أستاذ العراق إبراهيم النخعي مختفيا عن عيونه...!

ولما يفع الفتى الموهوب كان الحجاج جبار الأرض قد قبضه إليه جبار السماء. فرحل إلى الدار الآخرة مخلفا في الدار الفانية أحاديث مآسية.

لاحت على الحدث الناشئ مخائل النجابة وتعافها الناس حتى بلغ حديثها قاضي الكوفة وزعيم محدثيها في عصره الإمام الشعبي. فلما مر به يوما دعاه قائلا: إلى من تختلف!؟ قال: "أختلف إلى السوق" وسمى له أستاذه في السوق. قال الشعبي "لم أعن الاختلاف إلى السوق بل عنيت الاختلاف إلى العلماء" قال: "إني قليل الاختلاف إليهم" قال الشعبي: "عليك بالنظر في العلم، ومجالسة العلماء، فإني أرى فيك يقظة وحركة".

ووقع في قلبه من قوله وترك الاختلاف إلى السوق وأخذ في العلم منذ حداثته الباكرة.

بدأ النعمان يدرس علم الكلام وهو علم التوحيد والجدال في العقائد والأمور الدينية كافة. كالأنباء وما يجب أن يكونوا عليه، والجبر والاختيار، وإن شئت فقل إنه علم التشريح الفكري للمسائل المسلمة لإنكارها أو إقرارها بالدليل العقلي.

وكان العراق إقليما مستوفزا يدفع كل شئ فيه إلى شبوب الخواطر. وفي الطبيعة بالبشرية اتجاه غريزي للدفاع عن النفس يدفعها إلى الثورة على العسف، مواجهة إن استطاعت، ومن حواليه إذا هي لم تستطع، فتفرغ شحنتها من الحماسة في اتجاهات يظهر بادي الرأي أنها لا تمت بسبب إلى الحرب المشبوبة على الطغيان، لكنها في الواقع كفروع النهر، تتلاقى حيث المجرى العريض يحمل الفكرة الثائرة كما يحمل الزورق التيار.

ولقد يظهر من ذلك أن الإقبال على الجدال إنما هو في الواقع إقبال على النضال. إقبال المفكر بطبيعته، المتزن بفطرته، لم تمسه همزات الفتن ولم يفض في الخلافات العصبية أو المذهبية ولم يقارف الزلفى بأن يقارب السلطان، وإنما نزل إلى معارك العلم واستقام على طريقته طيلة حياته في بلد كانت السياسة فيه هي الخبز اليومي يطعمه كل كوفي.

وسنرى من بعد أثر هذا التعليم الأول حين راح في كهولته يصدع برأيه في شجاعة دونها شجاعة السيوف.

قالوا رأى النعمان في حداثته من الصحابة ثمانية رجال وامرأة. وقيل خمسة وامرأة وقيل خمسة وامرأتين – منهم أنس بن مالك – وإنه سمع منه حديث: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" وحديث: "الدال على الخير كفاعله" وحديث "إن الله تعالى يحب إغاثة اللهفان". وقالوا إنه لم يسمع من الصحابة أحدا، وإنما تمحضت حداثته لدراسة "الكلام".

لم يدع فيض الفتوة النعمان على حاله بل دفعه إلى الأسفار في سبيل العلم، فكان يرحل بين البصرة والكوفة حتى بلغ في "الكلام" مبلغا يشار إليه فيه بالبنان أو كما قال: "كنت أعطيت جدلا في الكلام، وأصحاب الأهواء في البصرة كثير، فدخلتها نيفا وعشرين مرة وربما أقمت بها سنة أو أكثر أو أقل ظنا أن علم الكلام أجل العلوم". لكن ما ركب فيه من عقل عملي كان حقيقا أن يغير مجراه وأن يهديه إلى طريقته المثلى. وللمتجادلين أغلوطات تتجافى مع القصد والنصفة، وخليق بمثله أن ينصرف إلى ما ينفع الناس فيهجر المتكلمين إلى الفقهاء أو كما قال: "فلما مضى مدة من عمري تفكرت وقلت السلف كانوا أعلم بالحقائق ولم ينتصبوا مجادلين. وخاضوا في علم الشريعة ورغبوا فيه وعلموا وتعلموا وتناظروا عليه فتركت الكلام واشتغلت بالفقه ورأيت المشتغلين بالكلام ليس سيماهم سيماء الصالحين قاسية قلوبهم غليظة أفئدتهم..".

كان فتى ذواقة يختار من كل شئ أحسنه. وما دام قد تخير الدرس فقد كان عليه أن يختار المدرس. وليس إذن إلا الحلقة المجاورة لأنها أكبر الحلق، وأستاذها أكبر الأساتذة: أبو إسماعيل حماد بن سليمان العكلي الكوفي الأشعري الذي يعقد جلساته في المسجد الجامع.

قال له حماد أن رآه: "ما جاء بك؟" قال: "تعلم العلم" قال: "تعلم كل يوم ثلاث مسائل".

وانخرط في سلك التلاميذ، يحفظ مسائله، ويعيدها في الغداة فيخطئ الحفاظ ويصيب هو، ويسكت التلاميذ ويسأل هو. ويلح في الجدل حتى ليحمر وجه حماد. لكن حمادا يدرك مواهب تلميذه من عمق أسئلته ومن صلته بالله. قام يوما من مجلسه فقال حماد لجاره: "هذا على ما ترى منه، يقوم الليل كله ويحييه...".

وقال أبو حنيفة عن نفسه فيما بعد: "كنت أكثر السؤال فربما تبرم مني.

ويقول يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي وضاق صدري".

لم يلبث إلا قليلا حتى أحس حماد أنه يزحم الحلقة كلها بوجوده، فأمر بأن يجلس بإزائه. وطفقا يجلسان لنفسيهما هذه الجلسة عشر سنوات متتابعات والتلاميذ عاكفون بالمسجد وأبو حنيفة أمثلهم طريقة، يحظى من الشيخ بكفل زاخر من الرعاية، فنضجت مداركه وعلا اسمه وتوثقت بينهما العرى حتى إن ابن حماد ليسأل أباه بعد غيبة طويلة عن الكوفة إلى أي الأشياء كان أشوق؟ وكان للسائل طفل وليد فتوقع أن يكون أقرب الناس إلى قلب الجد هو الحفيد. لكنه أجابه: إلى أبي حنيفة ولو أمكنني ألا أرفع الطرف عنه لفعلت.

وحدثت التلميذ نفسه في نحو الثلاثين من عمره أنه أوتي حظا من المعرفة وأنه يستطيع أن يؤتي الناس مما فتح الله عليه. فخرج يوما بالعشي تنازعه نفسه طلب الرياسة، ويمم شطر المسجد وأوى إلى ركن بعيد عن حلقة الشيخ يؤلف لنفسه حلقة أخرى. فلم يكد يدخل حتى رأى أستاذه كواسطة العقد في حلقته، فهاجته الذكرى. ولم تطب نفسه أن يترك ذلك الأستاذ العظيم الذي قال عنه إبراهيم النخعي إذ سئل عمن خلف بعده للناس: إنه خلف حمادا للناس. فكيف يترك النعمان حمادا؟

كان حماد آية في الزهد والورع يفطر كل ليلة في شهر رمضان خمسين إنسانا فإذا كانت ليلة الفطر كساهم ثوبا ثوبا.

وانصرف الفتى كاسف البال منكسرا ولكنه كان منتصرا. إذ انتشل نفسه من غمرات الطموح ليعاود دراساته في دأب وتعمق وحماسة زادته بسطة في العلم وسعة في الفهم. حتى إذا نعى إلى حماد بعض أهله بالبصرة عن مال لا وارث له دونه، رحل إلى البصرة وأناب أبا حنيفة في أن يجلس مكانه.

وأقبل الناس على الشيخ – الصغير – يستفتونه في أشياء لم يحفظها عن الشيخ الكبير، وحانت الفرصة وأخذ يجيب ويجيب، واستن سنة جديدة أرادها لنفسه وأراد الله أن تكون للدنيا، وللإسلام: تلك أنه دون إجاباته ليعرضها على أستاذه إثر عودته. فلما راجعها حماد أقر منها أربعين وأنكر عشرين، وبدأ الفتى يستحب التدوين، وبدأ فقه الجمهور الإسلامي يعرفه معه، وآنس التلميذ من نفسه ضعفا إذ منعه الحياء العلمي أن يعتد بأنه أصاب ضعفي ما أخطأ، وتعاقب عليه الجديدان في حلقة حماد، وهو يأخذ نفسه بالاستبحار في العلم وفي الدين، واشتملت عليه عناية الله تتعهده تعهد من قدرت عليهم أن يحملوا أمانة الفكر. ودار الفلك دورات وانسلخت

سنوات ثمان لم يكد يترك فيهن أستاذه يوما ولا بعض يوم. بل إن كثيرا من الدروس كان يشغله بياض النهار وزلفا من الليل.

كان يسهر مع جماعة من أصحابه في دار حماد يتدارسون، وكان للشيخ ديك يصيح من أول الليل فكانت العلامة بين حماد وبين أصحابه أن يصيح الديك فإذا صاح قام حماد فينفرط عقد الجماعة. ويقول أبو حنيفة: "يا لك من ديك قبحك الله قطعت حديثنا، إن شر الديكة ما صاح أول الليل".

كان يجلس مع حماد ولكنه كان يفكر مع نفسه. وبلغ به استقلاله. ما بلغ بأستاذه جلاله، أنه لم يكن يجد في مخالفته له حرجا. خرج معه مرة يشيع جنازة فسأل رجل حمادا: إني على دابة سيور وقد غابت الشمس ولست على الوضوء. قال له: تيمم لكن الرجل سأل أبا حنيفة فقال: سر وانتظر غيبوبة الشفق، فإذا خشيت ذلك فتيمم وصل، وسار الرجل فصادفه الماء فتوضأ.

وهكذا لم يجز للرجل أن يتيمم مادام يغلب على الظن وجود الماء، وفي الوقت سعة، طلبا للكمال بالطهارة الأصلية.

وهي أول فتوى خالف فيها أستاذه.

اكتملت دراسات الفتى المكتمل، وبلغ نضجه العلمي، واستوى في سن الأربعين – سن الرسل – فأضحى يستطيع أن يؤدي رسالته وهيأت له السماء كل الظروف.

ففي سنة ١٢٠ للهجرة صعدت روح حماد إلى بارئها واجتمع الناس إلى ابنه إسماعيل، وكان أغلب علم إسماعيل في التاريخ والأدب، فلم يلق الناس عنده كبير غناء. فأخذ المجلس موسى بن كثير وكانوا يحتملونه وإن لم يكن فارها في الفقه، لأنه لقى المشايخ الكبار، ثم خرج حاجا فجلس الناس إلى أبي بكر النهشلي فأبى فسألوا أبا بردة فأبى، وخلى بين المجلس وبين أبي حنيفة، فوجدوا عنده ما لم يجدوا عند أحد منهم في كل الأبواب نفاذا وعلما بارعا فلزموه وتركوا سواه.

وجاء إسماعيل بن حماد نفسه وإخوانه وجلسوا من النعمان مجلس النعمان معهم من قبل من حماد. ولم يزل الناس يختلفون إليه حتى تخرج على يده من تخرج من التلاميذ واستحكم أمره واحتاج الولاة إليه وذكره الخلفاء وجعل الأمر يزداد علوا، وغدت حلقته أعظم حلقة بالمسجد وأوسعها في الجواب وانصرفت وجوه الناس إليه وأكر الحكام والأشراف. فقوى ذلك بالعلم الواسع والجدة، وأسعدته المقادير، وكثر حساده.

وظلت في نفسه ذكريات حماد يرددها مشيدا بنداه على الناس وجدواه عنده وتقواه لله حتى ليقول: "إني لأدعو لحماد مع أبوي". بل إنه ليخلد ذكراه في نفسه وفي داره فيسمي ابنه باسم حماد ثم تخلده الدار بدورها فيسمي ابنه حماد ولده باسم إسماعيل كما كان لحماد ولد اسمه إسماعيل.

ذلك حماد أستاذه في الفقه، وأبوه في الفكر، وأولئك آباء حماد الفكريون:

كان حماد تلميذا لعلية الأستاذين. جرى اسمه في التاريخ على أنه راوية إبراهيم النخعي. وناهيك بإبراهيم من رجل عظيم قال عنه الشعبي عندما نعى إليه: "هلك الرجل.. إنه نشأ في أهل بيت فقه فأخذ فقههم، ثم جالسنا فأخذ صفو حديثنا إلى فقه أهل بيته فمن كان مثله.." وقال: دفنتم أفقه الناس. قبل ومن الحسن (الحسن البصرية)؟ قال: "أفقه من الحسن ومن أهل البصرة ومن أهل الكوفة وأهل الحجاز". فلقد كان في الواقع حلقة الاتصال بين فقه الأقدمين وفقه المحدثين – أخذ عن خاله علقمة بن قيس الذي كان الصحابة يستفتونه والذي قال عنه ابن عباس إذ مات: "مات رباني العلم" كما أخذ عن ابن أخي علقمة الأسود بن يزيد النخعي، وهذان النخعيان أخذا عن أستاذ الكوفة الأكبر عبد الله بن مسعود، سادس ستة أسلموا وأحد المهاجرين إلى الحبشة والمدينة، وقرين أبي بكر وعثمان وعمر وعلي، وصاحب النبي الذي قال فيه: "من سره أن يقرأ القرآن غضا كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد" والذي كان أخا في الفكر والرأي لعمر بن الخطاب.

قال عنه أبو موسى الأشعري: "لا تسألوني مادام هذا الحبر فيكم". ولما أرسله عمر إلى أهل الكوفة بعث إليهم يقول: "إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميرا وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاقتدوا برأيهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي" ولقدر لعمار ومساعديه ٦٠٠ درهم في الشهر! ولعبد الله بن مسعود ١٠٠ درهم لتعليمه الناس وقيامه على بيت المال.

وبنى الوزير المعلم بيته بجوار بيت الله. حيث قضى أبو حنيفة فيما بعد أحفل أيام حياته وجرى في خلده وفي منهاجه منهج هذا المسلم السادس أو المعلم الأول للكوفة، إذا أبيح لنا أن نستعير هذا التعبير العربي عن أرسطو.. وبهذا تستبين صلة أبي حنيفة بالصحابة المقربين وبالإسلام عندما نشأ الإسلام.

سأل الرشيد عن أبي حنيفة تلميذه أبا يوسف فصوره له في إحدى جوامع الكلم قال: ".. قال تعالى: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)، كان علمي به أنه شديد الذب عن المحارم

شديد الورع أن ينطق في دين الله تعالى بلا علم يحب أن يطاع الله تعالى، ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم، طويل الصمت دائم الفكر مع علم واسع، لم يكن مهذارا ولا ثرثارا.. إن سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب، وإلا قاس مستغنيا عن الناس، لا يميل إلى طمع، ولا يذكر الناس إلا بخير.." قال الرشيد: هذه أخلاق الصالحين، وأمر الكاتب فكتبها ثم أعطاها لابنه وقال: احفظها.

كانت قرة عينه في الصلاة طول الليل يتعبد ويتهجد ويصلي ويبكي ويدعو ربه قائلا: "رب ارحمني يوم تبعث عبادك، وقني عذابك، واغفر ذنوبي يوم يقوم الأشهاد". ختم القرآن سبعة آلاف مرة،وكان ربما ختم القرآن في رمضان ستين ختمة، ختمة في بياض النهار وختمة في سواد الليل، ولطالما ذاعت في الناس أحاديث تقواه، فقيل كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة أو ركعتين في الليل، وقيل إنه كان يصلي العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عاما.

سئل عنه جار له شيعي فقال: "لا يمنعني خلافي إياه أن أقول فيه الحق، إنه لجاري منذ أربعين سنة ما بيني وبينه إلا حائط، ما كان يصيح كل ليلة إلا بسبع من القرآن بدعاء كثير وبكاء كثير".

ولكثرة قيامه بالليل وتهجده سمي الوتد.. روى مسعر بن كدام أنه أتاه في مسجده ستة أشهر، فما رآه صلى الغداة إلا بوضوء العشاء الآخرة.

كان إذا أراد أن يصلي من الليل تزين حتى يسرح لحيته، مؤثرا أن يسجد لله وهو في زينته، ولو كان مستخفيا في الظلام.

وكان لديه ثوب قيمته ألف وخمسمائة درهم يلبسه في بعض الأحايين إذ ينزع لباسه الذي يكون عليه والناس نيام، ثم يتعطر ويقوم إلى الصلاة، فقيل له إنما يلبس الناس هذا اللباس إذا لقوا سلطانا أو اجتمعوا في مجمع عظيم فقال: التزين لله عز وجل أولى من التزين للناس.

ولما ختم ولده حماد سورة الفاتحة احتفل به أعظم احتفال، فأعطى المعلم خمسمائة درهم، أو ألف درهم، واستكثر المعلم هذا السخاء إذ هو لم يعلمه من الكتاب إلا فاتحة الكتاب فقال له: "لا تستحقر ما علمت ولدي. لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيما للقرآن".

* * *

كان جم الوفاء لجيرته وعشيرته يسهر الليل نشوان بذكر الله وفي جوار داره إسكاف يحي الليل منتشيا بلذاذات الشراب، يعمل طول النهار حتى إذا جن الليل حمل لحما فطبخه أو سمكة فشواها، فإذا دارت رأسه علا حسه ورن جرسه، بشعر الشاعر:

أضـــاعوني وأي فتـــى أضـــاعوا ليـــوم كريهـــة وســـداد ثغـــر

كـــأني لـــم أكـــن فـــيهم وســـيطا ولـــم تـــك نســـبتي فـــي آل عمـــرو

أجـــر فـــي المجـــامع كـــل يـــوم فيـــا لله مظلمتـــي وصـــبري

وذات مساء فقد الجار المتعبد جاره المعربد وقيل له إن العسس اقتادوه إلى السجن منذ ليال، فصلى الفجر من الغد ودعا بسواده وقلنسوته الطويلة فلبسهما وركب بغلته وقصد إلى دار الأمير – عيسى بن موسى – يسأله المغفرة للجار اللصق. فأكرم الأمير مثواه وأطلق سراح كل من أخذه الشرط من تلك الليلة إلى ذلك اليوم. وقفل الرجلان راجعين، هو إلى داره والإسكاف إلى جواره. قال لصاحبه وهو يحاوره: يا فتى: هل أضعناك؟ فأجاب قائلا: بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرا.

كان ذلك الصنيع لفتة بارعة تاب بعدها الفتى عن شرابه ولزم الحلقة حتى صار فقيها من فقهاء الكوفة.

فلا تتساءل كيف جشم رجل الفقه نفسه تلك الرحلة في طلب العفو عن سكير. فالجواب في السؤال: أنه رجل الفقه الذي لا يتحرك في قوالب من الجبس، أو في مقامع من حديد، لأنه صاحب الفقه الحي والطبع الأريحي الذي لا يضيع جاره، فهدى نفسا كانت ترتع في الفساد. وحسبك هذه النهاية لتحتفل بها عن البداية.

وقديما صنع مثله سعد بن أبي وقاص فاتح العراق في صقع قريب من أصقاع العراق يوم القادسية، يوم شرب أبو محجن الصحابي الخمر فحبسه سعد وجئ به ليقام عليه الحد.. فلما التقى الجمعان ناحت نفسه كنواح الحمائم:

كفى حزنا أن تطرد الخيل بالقنا وأترك مشدودا على وثاقيا

فقال لامرأة سعد أطلقيني ولك – والله – إن سلمني الله أن أرجع حتى أضع رجلي في القيد. فقبلت السيدة عهده وحلت قيده. فوثب على البلقاء، فرس الأمير، وأطلق لها العنان بين الصفوف فبهر الجيش، وخلب لب القائد، حتى خالوه ملكا من الملائكة المسومين أنزله الله لنصرة دينه. فخلى سعد سبيله وآلى ألا يقيم عليه الحد من أجل بلاء بدت فيه التوبة الكاملة بإسلامه نفسه في سبيل الله.

وكانت لمسة مباركة تاب من بعدها أبو محجن عن الخمر فقال للأمير: "كنت أشربها إذ يقام علي الحد وأطهر منها فأما إذ بهرجتني – أهدرتني بإسقاط الحد – فوالله لا أشربها أبدا".

كان أبو حنيفة إذا جمع المال تسابقت كفاه في تفريقه.. ذلك تلميذ يد خلته، وتلك امرأة ذات خصاصة، وهذا فقيه في أسوأ حال. إن مال أبي حنيفة إن لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا كان المال، وإذا أنفق أبو حنيفة على عياله نفقة فليتصدق بمثلها، وإذا اكتسى ثوبا جديدا فليسك بمثل ثمنه الشيوخ والعلماء.

أصابت رجلا من الأغنياء فادحة أثقلته فجعل يتجلد حتى عضه الجوع ومسه الضر وشكت له امرأته جوعها وجوع صغيرتها، أن أجدب الفناء وصفر الإناء فمس كبده من ذلك كبد. وخرج على عزم السؤال. وقصد إلى مجلس أبي حنيفة حيث جلس مليا تقيمه الحاجة ويقعده الحياء. ثم انفض المجلس عن أهله وتفرقوا وخرج الرجل دون أن يبدي من أمره ما أخفى، وعاد إلى داره. وكان أبو حنيفة قد قرأ في وجهه أشياء تجري دلائلها بين قسماته، فاتبعه حتى دخل الرجل داره، ولما جن الليل جعل أبو حنيفة في كمه خمسة آلاف درهم ودق الباب وقال: "أيها الرجل وضعت عند بابك شيئا هو لك". ورجع مسرعا لئلا يرى ذل الأخذ في وجهه، وأخذ الرجل الصرة وهو يأبى أن يحل عقدتها خشية أن تكون صدقة ذمي – فلقد كان الذميون يتألفون قلوب الناس في تلك الأيام بالأعطيات – ولكن زوجته أهابت به "حل عقدتها لعل الله يحل عقدتنا".. فلما حلها قرأ كلمة أبي حنيفة: "هذا المقدار جاء به أبو حنيفة إليك من وجه حلال فليفرغ بالك..".

وحبس إبراهيم بن عيينة – أخو سفيان بن عيينة المحدث – على أكثر من أربعة آلاف درهم فهم أصحابه بأن يجمعوا له اكتتابا. فلما صاروا إلى أبي حنيفة أمر برد ما أخذوه من الناس وقضى عن المدين دينه.

جاء رجل فقال إن علي لفلان مائة درهم وأنا مضيق فسله يصبر عني، ويؤخرني بها فكلم أبو حنيفة صاحب المال فقال صاحب المال: هي له أبرأته منها، قال الذي عليه الدين، لا حاجة لي فيها. قال أبو حنيفة: "ليت الحاجة لك، وإنما الحاجة لي قضيت".

تلك صدقات ونفحات في المناسبات. لكن لعطاء كان يجري جريان الزمان في كل الأيام، إذ يأمر ولده حمادا بأن يشتري في كل يوم بعشرة دراهم خبزا يتصدق به على جيرانه، وعلى كل من يختلف إلى بابه، وكان يجري على الكثير من أصحابه جراية في كل شهر عدا ما كان يواسيهم به في عامة الأيام.

وتناهى به التجرد عن المادة، فكان يخرج عن كل ماله للمعوزين. لا يخاف عيلة، ولا يستبقي لداره ولا لأهله إلا قدر نفقتهم، والباقي كله طعام البائس والمعتر.. وفي ذلك يقول: "ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة إلا أخرجته وإنما أمسكها لقول علي ﷺ أربعة آلاف فما دونها نفقة، ولولا أني أخاف أن ألجأ إلى هؤلاء ما تركت منها درهما واحدا".

وسترى كيف كان ث٤راؤه عريضا لترى كيف كان سخاؤه عجيبا، بل لترى كيف كان إدباره عن الدنيا مصدرا للقوة في ذاته وأثرا لها في نفس الوقت، كالقوى تولد القوى فتتولد منها.وسترى كيف أخضعت له هذه القوة العالم في حياته وبعد مماته فبلغ في الدنيا وفي الآخرة ما شاء بل ما شاءت له السماء.

ثم إنك لترى الأريحية كلها إذ يهدي إليه: أهدي إليه منديل قيمته ثلاثة دراهم فعوض المهدي قطعة خز قيمتها خمسون درهما.وجاءته هدية من الفاكهة فبعث إلى المهدي متاعا مرتفعا كثير القيمة.

وأهدي إليه يوما ألف نعل ففرقها على إخوانه، ورؤي بعد ذلك بيومين يشتري لولده نعلا... فلما سئل في ذلك قال: "إن مذهبي في الهدايا تقويمها بالغة ما بلغت. والمكافأة بمثلها أو مثل ضعفيها، وتفريق الهدية بين إخواني. لما قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "إذا أهدي إلى الرجل فجلساؤه شركاؤه، وإخواني جلسائي فلا أحب أن أنفرد دونهم بل أرى أن أجعل نصيبي لهم"... وأرى قبول الهدية كما قال تعالى: (خذ العفو وأمر بالعرف)، ولما روي عن النبي ﷺ أنه

كان يقبل الهدية ويجيب الدعوة. وأرى المكافأة بأحسن منها لقوله تعالى: (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها)، ولقوله تعالى: (ولا تنسوا الفضل بينكم).

وأهدي إليه مرة فكافأ المهدي بأضعاف ما أهدي إليه. قال الرجل: لو علمت أنك تفعل ذلك ما أهديت إليك. قال: "لا تقل هذا فإن الفضل للسابق، ألم تسمع إلى ما حدثني به الهيثم عن أبي صالح يبلغ به النبي ﷺ قال: من صنع إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فأثنوا عليه..".

بلى.. فليسعد النطق إن لم تسعد الحال..!

رأى على أحد جلسائه سنجابا فلماهم بالخروج قال له: ناولني هذا السنجاب فتناوله وقال: ما أطرفه. وطلب من صاحبه بيعه فسر صاحب السنجاب أن أعجب الأستاذ بالسنجاب. لكن الأستاذ سأله عن الثمن فأجاب: سبحان الله أبيعه لك! هو لك هبة مني وتذكرة. قال الأستاذ إن بعته مني بقيمته وإلا فلا حاجة لي في الهبة، فإن بعته مني بقيمته كان أعجب إلي وأفعل. ذلك لأني محتاج إليه. وأبى الرجل وأبى الأستاذ. فقومه بعض الحضور واشتراه أبو حنيفة.

وهو أرحب الناس صدرا بالأذى والسفاهة. كان يدرك أن رسالته حرب على الجهالة والحسد والتعصب. وأن السبيل إلى الظفر بحملة هذه الأسلحة هي تجريدهم منها،بالحلم وبالصبر. كان في المسجد فقام رجل في ناحية فجعل يسبه فما قطع حديثه، وقام إلى داره، فتبعه الرجل يشتم ويصيح حتى إذا بلغ داره قام عند الباب واستقبل الرجل بوجهه قائلا:"هذه داري أريد الدخول فإن كنت تستتم باقي كلامك فأتمه حتى لا يبقى شئ مما عندك حتى لا تخاف الفوت" فاستحى الرجل، وقال: اجعلني في حل. قال: أنت في حل.

وقديما كان فتى مهين يسلق بركليس بألسنة حداد على ملأ من الناس فظل الرجل العظيم في عمله لا يلقي إليه بالا حتى أوت الشمس إلى الغروب فسار إلى منزله، والفتى على أثره يردد سبابه، فلما دخل بركليس بعث خادما يحمل المصباح لينير للفتى طريق عودته إلى داره.

وهذه أمه يبجلها ويدللها، كانت كبعض الأمهات وبعض العشيرة تكاد تعشى عينها في سنا الكوكب الذي يغمر الدنيا ضياؤه! لا تثق بالفتيا إلا إذا جاءتها واردة من الخارج..!

حلفت يمينا واستفتته فأفتاها، فلم ترض عما أفتى فتاها، وأبت إلا أن يفتيها زرعة القاص "الوعظ". فلم يضق ذرعا، وحملها إلى دار زرعة، وهنالك قال لها صاحب الدار: أأفتيك ومعك فقيه الكوفة..! ولو انكشف أمامه لوح المستقبل لقال فقيه الدنيا.

وأسر أبو حنيفة لزرعة أفتها بكذا، فأفتاها.

بل كان يحملها إلى دار عمر بن ذر على ما كان بين الدارين من بعد المشقة "ثلاثة أميال" ليصليا التراويح خلفه وليستمعوا إلى وعظ هذا الزاهد الجليل. وليدعوا الله كما يدعوه "أتعذبنا يا رب وفي جوفنا التوحيد.! لا أراك تفعل" وهو دعاء يوائم قاعدة أبي حنيفة في الإيمان كما سترى بعد. فأي رقة تفيض من هذا القلب الكبير.! وأي دار كتلك الدار تشيع في أجوائها الزهادة والتبتل والإيمان. وأي ذوق كذلك الذي يتلمس على هذا النحو رضا السيدة التي حملته وأرضعته وقدمته هدية فاخرة للوجود.

ولما أوجعته السياط وهو في قمة المجد، معني بالنكال الذي يصبه عليه ملوك الأرض، لم يكد يفتح فاه بالكلام إلى جاره إلا ليقول عن أمه: "والله ما أوجعتني السياط قدر ما آلمتني دموعها" وقالت له أمه: ما خير علم يضيعك هذا الضياع.

قال: ياأماه إنهم يريدونني على الدنيا، وإنني أريد الآخرة، وإنني أختار عذابهم على عذاب الله.

قال نابغة الأدب الديني في فرنسا "بوسويه" في رثاء عبقري الفن الحربي "كونديه": "ألا بعدا لأولئك الأبطال الذين لا إنسانية فيهم! إنهم قد يستحقون احترامنا وإعجابنا ككل ما هو خارق للطبيعة لكن قلوبنا ليست معهم...".

* * *

في أي سلك م الرجال يسلك هذا السيد الرفيع الطراز؟ لو كان في الإسلام أرستقراطيات وطبقات لكان مكانه في الذروة العليا من الطبقة العليا خلقا وخلقا، سمتا ونطقا. صلة بالناس وصلة بالله.

كل أولئك ثم هذا نسبه العلمي الذي يسمو به إلى السابقين من أصحاب النبي. ففيم إذن أجهد الأشياع والأتباع أنفسهم ليخلقوا له نسبا غير أنساب الموالي، ويزيفوا له من مسميات الغرور أنه سليل الملوك، وأن اسمه أو معناه ورد في التوراة، وأن النبي عليه الصلاة والسلام قد بشر بقدومه؟

إنما يتفاضل الناس بالأحلام لا بالأرحام، والمسلمون سواسية كأسنان المشط وكالبنيان يشد بعضه بعضا، وهم سواء في الحج وفي الصلاة وفي الزكاة، وفي الجنايات، عين بعين وسن بسن، والجروح قصاص.

سوى النبي بين نفسه وبين مولاه زيد، وأمر أسامة بن زيد على الجيش وهو حدث، وفي الجيش أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص وغيرهم. فلما بويع لأبي بكر قبل مسير الجيش كلم أبو بكر خليفة اليوم أسامة في عمر خليفة الغد، ليأذن له في التخلف ففعل. وظل عمر يناديه كلما لقيه: السلام عليك أيها الأمير. ويقول: "إني لا أدعوك إلا به لأن النبي ﷺ مات وأنت علي أمير".

ولما شرع عمر يستخلف قال: لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته.

في تلك الأمة التي لا تعرف شريفا ومشروفا نهض الموالي بأفدح الأعباء في الحرب والسياسة وفي العلم والفقه.

في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة، وظل عكرمة رقيقا حتى مات ابن عباس فباعه ولده علي بأربعة آلاف دينار. فقال لعلي: "بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار"! فاستقال علي من بيعته وأعتقه!

وكان عبد الله بن عمر كثيرا ما يذكر ومعه مولاه نافع، وأنس بن مالك لا يكاد يذكر إلا ومعه مولاه ابن سيرين، وأبو هريرة لا يكاد يذكر إلا ومعه مولاه عبد الرحمن بن هرمز!

بل كانت دولة الفقه للموالي في بعض الأمصار، كالبصرة حيث كان على رأسهم الحسن البصري، وفي مكة كان مجاهد بن جبر،وعطاء بن أبي رباح، وطاووس بن كيسان وكثيرون من الموالي.

وفي سوق الفخار هذه علا صوت السودان، فتولى الفتيا بمصر يزيد بن أبي حبيب بأمر عمر بن عبد العزيز، وكان يزيد مولى للأزد أبوه من دنقلة، وهو الذي تعلم عليه إمام مصر العظيم الليث بن سعد.

ثم من هم الموالي؟ الموالي هم القوم المنتسبون إلى بيوت العرب بعقد ولاء، ومنهم الأرقاء ومنهم غير الأرقاء، وكانوا في الأغلب الأعم من أهل البلاد المفتوحة كمصر وفارس وبلاد الروم.وكان العرب يستطيعون أن يتملكوهم بحق الفتح، لكنهم تركوهم أحرارا،وجرت كلمة الموالي في إطلاقها على أن تشتمل من ليسوا عربا من أهل هذه البلدان، لأنهم كانوا يسلمون على أيدي المسلمين، فمن أسلم على يد مسلم كان مولاه، وكثيرون منهم أسروا أطفالا رباهم المسلمون وعلموهم وغدوا مواليهم. ولم يك بدعا أن يظهر الفقه والعلم على يد أهل هذه البلدان المفتوحة: فيقال إن الفقه بعد موت العبادلة الأربعة – أبناء عباس وعمر وعمرو والزبير – قد انتقل إلى الموالي، إذ كان الموالي أهل حضارة رفيعة لم يمسخها الغزو،لأنه لم يك غزوا بربريا، وإنما كان غزوا فكريا، فتح الله به على المسلمين، وعلى أهل البلدان المفتوحة، فأنزل رحمته عليهم في شريعته إليهم. وانداحت مع الموجة الفاتحة موجة من الإيمان غدت من بعد تيارا من التفتح الذهني أخرج للأمة ما أخرجت من الآيات. وكان الفقه أول ما أخرجت لأنه في الواقع هو الدين نفسه، أو القدر الأوفى من الدين. وتلاقى العاملان، وتبادل المتبادلان، فمنح العرب الشعوب المغزوة دينهم قيما، ولغتهم فصحى، وقدم الموالي من جانبهم أسباب حضارات فاخرة، وأصول تفكير عميقة. واشتاع الشريكان أبد الدهر، فازدوجا ثم اندمجا. وتضافرت القوى الإسلامية على الإنتاج تضافر القوى عند التلقيح لتخرج أنواعا قوية جديدة الطراز.

* * *

وإذا كان ثمة وقائع تشير إلى النفرة بين العرب والموالي فقد صارت حديثا في التاريخ بعد أن توج الازدواج بالاندماج.

سأل هشام بن عبد الملك جليسه في فاتحة القرن الثاني: هل لك علم بعلماء الأمصار؟

قال: بلى يا أمير المؤمنين.

قال: فمن فقيه أهل المدينة؟ قال: "نافع مولى ابن عمر".

قال: فمن فقيه أهل مكة؟ قال: "عطاء بن أبي رباح".

قال: مولى أم عربي؟ قال: "مولى!

قال: فمن فقيه أهل أهل اليمن؟ قال:"طاووس بن كيسان".

قال: مولى أم عربي؟ قال: "مولى!

قال: فمن فقيه أهل اليمامة؟ قال: "يحيى بن أبي كثير".

قال: مولى أم عربي؟ قال: "مولى!

قال: فمن فقيه أهل الشام؟ قال: "مكحول".

قال: مولى أم عربي؟ قال: "مولى!

قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟ قال: "ميمون بن مهران".

قال: مولى أم عربي؟ قال: "مولى!

قال: فمن فقيه أهل خراسان؟ قال: "الضحاك بن مزاحم".

قال: مولى أم عربي؟ قال: "مولى!

قال: فمن فقيه أهل البصرة؟ قال: "الحسن وابن سيرين".

قال: موليان أم عربيان؟ قال: "موليان!

قال: فمن فقيه أهل الكوفة؟ قال: "إبراهيم النخعي".

قال: مولى أم عربي؟ قال: لا بل عربي!

قال: كادت نفسي تخرج ولا تقول واحد عربي!

قال ذلك هشام وقد طبع على قلبه التعصب لأعراقه، لكن الخليفة الذي كان في طليعة من حملوا ميزان المعدلة في الإسلام قال غيره.. فلما سمع عمر بن عبد العزيز أن بعض الناس أنفوا أن تكون الفتيا للموالي صاح فيهم: (ما ذنبي إن كانت الموالي تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون؟).

والذ١ي قاله عمر قاله صاحب الشريعة من قبل لأهله: "لا يجيئني الناس بأعمال وتجيئونني بالأنساب (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)".

وقف رجلان مولى وعربي على مجلس لبني العنبر. والعربي على حمار والمولى على ناقة، وكان المولى يقرأ ويكتب، العربي لا يقرأ ولا يكتب. فلما سلما على القوم قاموا فسلموا على المولى ثم عادوا إلى العربي، فقبض يده عنهم وقال: لا ولا كرامة! بدأتم بالصغير قبل الكبير، وبالمولى قبل العربي فاسكتوا، فانبرى واحد منهم فقال له: بدأنا بالكاتب قبل الأمي وبالهاجر قبل الأعرابي وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار.

هذان روحا هشام وعمر، وهذا الجواب الأخير هو النظر الذي ينظر به الإسلام إلى عنصري كيانه قد أنطق الله به فتى بني العنبر.

كان الموالي هم الذين حملت مناكبهم عمد الدولة العباسية حتى استقرت بها الأسباب. والأولى ترجموا، وألفوا، ولقحوا الحضارة العربية بلقاح الفرس، واليونان، والنبطيين والكلدانيين، والآشوريين،والبابليين،والروم، والهنود، وغيرهم، فصيروا الحضارة الجديدة حضارة إسلامية جامعة.

وفي العهد العباسي كان مفخرة للرجل أن يكون من الموالي. كان عمارة بن حمزة بعيد الصوت في بلاط المهدي، فدخل عليه يوما فأعظمه فقال رجال من القرشيين: من هذا الذي أعظمته الإعظام كله. قال عمارة بن حمزة مولاي. فسمعها عمارة فرجع يقول: يا أمير المؤمنين جعلتني كبعض خبازيك وفراشيك، أفلا قلت عمارة بن حمزة بن ميمون مولى عبد الله بن عباس ليعرف الناس مكاني؟

وهؤلاء طائفة من الغزاة والملوك: كافور – الأسود الزنجي كما يقول المتنبي – وأبو المسك – كما يناديه أيضا – كان (الملك الأستاذ) كما سماه المتنبي كذلك، وطارق بن زياد

مولى موسى بن نصير، وموسى نفسه مولى عبد العزيز بن مروان: هذان المولیان اللذان يقصر دون مجدهما كل مجد السادة، هما اللذان منحا الإنسانية حضارة الأندلس فوصلا الشرق بالغرب وجمعا طرفي التاريخ قديمه وحديثه. ولو طال بنا السرد لبرزت أسماء الموالي على أنها زين أعلام التاريخ الإسلامي وحروف هجاء في آيات فخاره.

بل هؤلاء بنو تيم الله بن ثعلبة موالي أبي حنيفة وأبيه، لقد صار لهم شأن بأنهم موالي ذلك الذي سعدت به الدنيا فوضعهم في التاريخ حيث يوضع.

فلا تسل إذن عن ثابت والد النعمان ولا عن جده زوطي فكلاهما فخار ولدهما إذ يقال إنهما مولیان، وفتاهما فخار هذه الأمة الإسلامية على الزمان، بل قل لثابت ولزوطي ولكل من حاول أن يغض من نسبهما مقالة المتنبي لجدته:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد فإن أباك الضخم كونك لي أما

* * *

إن هذه الشريعة لتباهي بطائفة من أنبغ علمائها بزغت نجومهم أو وفدت أصلهم من خارج بلاد العرب. ولئن ساغ ذلك النبوغ في السياسة أو في القيادة أو في الفن، فإنه في الفقه، وللوهلة الأولى، يستوقف النظر، وبخاصة في فجر الإسلام. ففي الفقه نصوص القرآن والأحاديث والسنن. فكيف تتمثل النفوس الوافدة من بعيد خصائص الأمة العربية في سهولة ويسر وسرعة فتحفظ كتابها وتدرك أسرار لغتها حتى تبز الخلص من بنيها!

هؤلاء الموالي الذين أسلفنا المقالة فيهم. وهذا الليث بن سعد كان أهل بيته يقولون نحن من الفرس من أصبهان، والطبري من آمل بطبرستان، وابنجريج رومي المنبت، وربيعة الرأي فارسي الأصل، والشعبي علامة التابعين كانت أمه من سبي جلولاء، والحسن لابصري كان أبوه من سبي ميسان، ولو عمدنا إلى الحصر لشمل الكثرة الغالبة من أئمة الفقه والعلم، ولكنا نقتصر على بعض الأمثال. بل إن اللغة نفسها قد سعدت بالموالي مثلما سعدت بأربابها، هذا عبد الحميد بن يحيى الذي قيل عنه: "ابتدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد" كان من الموالي،وهذا سيبويه يضع قواعد النحو! والكسائي وارث علماء البصرة، وتلميذه الفراء كان ديلميا كمهيار، وابن مسكويه وابن سينا والفارابي كانوا موالي أجمعين. ومن قبلهم كان ابن المقفع سيد النقلة إلى العربية.. وهو أول من أشار بتجميع الفقه وما يزال تجميع القوانين الشرعية إلى اليوم أمنية رجل القانون.

نزل الوحي في شبه الجزيرة كالغيث، وسال من قممها إلى الوديان الإسلامية طرا حيث قر قراره، واحتمل السيل في فيضانه تلك المدنية الرابية لا تقفها الحدود ولا السدود، فشرقت فغمرت بطاح آسيا، وغربت لتصب في المحيط الأطلسي. بدأ العراق نهضة اللغة بالبصرة واكتملت فيه نهضة الفقه بالكوفة، ثم تلقى اللواء في مصر جامع عمرو، والأزهر الأغر، فأبقى الجامع العظيم على حضارة الإسلام ألف عام ليؤديها إلينا في القرن الرابع عشر وإلى كل القرون.

إن هذا الدين متين كلما أوغل الداخل فيه اشتملته فيوض النور، فخلبت لبه قواعد المجتمع، ونظم الأسرة والأهلية والأخلاق العامة والزكاة، والصلة اليومية المتعددة بالله باسم الصلاة، والمؤتمر السنوي العام إلى جوار بيت الله الحرام، والمؤتمر الأسبوعي الخاص في يوم الجمعة في كل مكان، وحرمات البيوت وحقوق المعاملات، والتعاون، وأخلاق السلم والحرب ومساواة المرأة بالرجل ومساواة المسلم بالمسلم، ذلك وما إليه من خصائص الإسلام يأسر من فؤاد الباحث بقدر إيمانه، وكلما تغلغل فيه اختلطت كفاياته بأصول الدين فاستحالت عجبا.

بهذا تمثلت الشريعة الإسلامية الملل والنحل الشتى فصارت أمة واحدة هي الإسلام، لا فضل فيها لعربي على أعجمي، وإنما الفضل بالتقوى.

ولئن كانت النعرة العربية قد استبدت بهشام بن عبد الملك، فإنما هي جاهلية ذمها النبي ﷺ بقوله: "يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان برتقي كريم على الله، وفاسق شق هين على الله، والناس بنو آدم.." ولقد فات أمير المؤمنين أن المؤمنين موال وعرب، وأن الإسلام للعالم كله لا لجزيرة العرب وحدها. وأن نبوغ النوابغ من أفنان الدولة إنما هو أفخر التحايا للدين الجديد في مطلع سعده وفاتحة عهده، أن أدبهم فأحسن تأديبهم.

وفاته أن جزيرة العرب قد سبقت فاحتفظت بكل شئ، ولم تكد تبقى للناس من دونها شيئا.

فاته أنها أخرجت محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وحسبها هو.. ولو أنه ليس لها وإنما هو للدنيا جميعا.

لقد اعتز الإسلام بأهل البلاد المفتوحة، وتألقت في سماواته حضارة دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة والقسطنطينية وأمثالها، لكن مركز الثقل كان دائما في وسط الجزيرة. وحيثما كان المسلمون ولوا وجوههم شطره، مبتهلين إلى صاحب البيت العتيق بمكة، مصلين على صاحب القبر الشريف بالمدينة.